المطبوعات العربية

البدء بالطبع وعبث الطابعين

سبقت مصر سائر الأقطار العربية في الأخذ بأسباب الحياة العلمية ومنها طبع الكتب . ولئن بدأت الاستانة بطبع الحرف (١١٣٩ هـ) بعد أن طبعت الكتب العربية في الغرب بزمن طويل ، إن الطبع بالحروف لم يعهد في مصر الا في سنة ١٢١٢ هـ (١٧٩٧ م) وكان على ضعف حتى سنة ١٨٢٢ م وهي السنة التي أسست فيها مطبعة بولاق الأميرية وطبعت الأمهات القديمة وكتب العلوم الحديثة .

وأنشئت في بيروت مطبعة المرسلين الاميركان البرتستانت سنة ١٨٣٤ م ثم مطبعة المرسلين اليسوعيين الكاثوليك في سنة ١٨٤٨ م ، وفي نحو ذلك الزمن دخلت الطباعة بالحروف الى تونس ، وانشأت الحكومات مطابع لها في بعض أنحاء الشرق . وما بدأ الأفراد بتأسيس المطابع في أرض الشرق العربي الا بعد انقضاء زمن على المطابع الحكومية ، وكانت عنايتهم بما يطبعون دون عناية الحكومات ، ذلك لأن القائمين بأمرها توخوا الربح قبل كل شيء ، وتوهموا الأرباح تأتي من طريق الاقتصاد في النفقة من كل باب ، وكان معظم من عانوا الطباعة لا شأن لهم في العلم والأدب ، فأساء بعضهم الطبع بالطبع ، وأخذت الشناعة ببعض ما طبعوا : لا دقة في التصحيح ، ولا ذوق في وضع الصفحات والحواشي ، وقد يخلطون في الكتاب كتاباً آخر لا علاقة له بالكتاب الأصلي ، فتستغرق الصفحات بالأصول والزوائد ، ويختارون للطبع أسقم الحروف ويتخيرون أدنى الورق ، ويتطلبون الرخص في كل شيء ، وبذلك خلت مطبوعاتهم من كل بهجة وروعة .

ولما كان اكثر من عانوا طبع الكتب من طبقة العامة ، لم يهتموا لجهلهم بغير كتب الخرافات والغراميات على الأغلب ، بدعوى أنها اروج من كتب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العلم، ظانين أن طبع الكتب من جملة ضروب التجارات لا تحتاج الا لما تحتاجه التجارة عامة من رأس مال، ومعرفة بطرق التوفير، واقتناص الربح، والتجارة تخوّلهم أن يطبعوا ما شاؤوا، ويعملوا بالكتب ما شاؤوا، على أن تكون الغاية من كل ذلك الكسب المضمون، لذلك ما تعفف بعض الوراقين عن طبع كتب المنامات والتخريفات وأشياء سموا كتبها الروحانيات، واشياء هي من الاسرائيليات، وكتب أسرار الحرف، والجفر، وكتب الكيمياء وعمل الذهب، وكتب السخف والمجون، وطبعوا واكثروا من طبع كتب ابي معشر والدبربي واضرابهما، وكل الكتب المنسوبة لأمثالها تعبث بالعقول وتزيد قارئها جهلاً الى جهل

طبع كتب العلم

قويت العزيمة على الاستكثار من طبع كتب العلم لما كثر تبرّم الناس بتلك الكتب المضرّة وزاد عدد المتعلمين على الطرق الحديثة، فأدرك العارفون قصورهم عن احياء كتب السلف، فطبعوا في مصر أسفار مالك والشافعي وابن حنبل وابي حنيفة والغزالي وابن حزم وابن تيمية وابن القيم وابن الجوزي وابن قتيبة والجاحظ وثابت بن قرة وحنين بن اسحق والآمدي والشاطبي والقرافي وابن رشد والباقلاني وابن عبد البر والسرخسي واخوان الصفا وابن جني وابن منظور وابن سيده الى عشرات امثالهم من علماء الأمة وحكمائها وأدبائها ومؤرخيها ولغوييها .

واختصت الهند بطبع كتب الحديث ورجاله وما شاكل ذلك من علم الكلام واللغة، كما تفردت ايران بطبع كتب الامامية بالعربية وغيرها، وزنجبار بطبع كتب الخوارج والإباضية، ودمشق وبيروت بطبع الكتب المنوعة، وخصت أوربا بطبع كتب العلوم كالطب والكيمياء والأقرباذين وجرّ الأثقال والزيجات والأرصاد والفلك والرياضيات والطبيعيات والنبات والتاريخ والجغرافيا والرحلات واللغة والأدب والشرع وغير ذلك من العلوم التي نقلتها العرب عن أهل الحضارات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

القديمة وزادت فيها ، او كانت وقفاً عليهم كعلوم القرآن والسنة واللغة والشعر .

شرعت أوربا من نحو أربعة قرون بطبع ما عثرت عليه من كتب الرازي والبيروني والبتاني والكندي (الفيلسوف والمؤرخ) وحنين بن إسحق والخوارزمي ونصير الدين الطومي وعبد الرحمن الصوفي وابن النديم والفارابي وابن سينا ويوحنا ابن ماسويه والطبري واليعقوبي والدينوري والمسعودي وابن خلكان وابن الاثير وأبي الفدا والقزويني وحمزة الأصفهاني والشريف الادريسي والمقدسي والاصطخري وابن حوقل وابن خرداذبة والهمداني والبلاذري والبكري وابن عذاري وابن سعد وابن سعيد ومسكويه وابن جبير وابن هشام والبيضاوي وعشرات من اضرابهم مما لا يقل عن خمسمائة مجلد ، وكلها كتب مختارة بذلوا الوسع لمعارضتها على نسخ متعددة ووشحوها باختلاف الروايات وحل عويص مشكلاتها ، وزينوها بالفهارس ، وقربوا منال الانتفاع بها على المطالعين ، عملوا كل ذلك بأمانة وتدقيق وتحقيق ، وكانت الغاية من طبعها واحيائها خدمة العلم ، وما تصر الهولانديون والألمان والطليان والفرنسيون والبريطانيون والروسيون والاسبانيون والبولونيون والاميركان وغيرهم في احياء كتب العلوم وطبع كتب اللغة والتفسير والحديث أيضاً

طلع القرن الرابع عشر من الهجرة ، وأهم مواطن طبع الكتب العربية في الشرق القاهرة وبيروت وتونس والاستانة وحيدر آباد الدكن وطهران وفاس ، وجهلة الوراقين قابضون على قياد الطبع لا يهتمون بغير الكسب ، وقلّ من الكتب ما تولى تصحيحه العارفون ، ومنها ما نشرته الحكومة المصرية وبعض الجمعيات العلمية والدينية . وكان المؤلفون في بلاء من أكثر الورّاقين يتحكمون فيهم ، ويستثمرون جهودهم ، واذا أرادوهم على عمل فهارس للكتب تسهل على المطالعين تجهموا لهم ، واذا اقترحوا عليهم أن يختاروا الجيد من أصناف الورق هزؤوا بهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

جمعيات طبع الكتب

وهذا ما دعا الى تأليف عدة جمعيات من النُبوغ على العلم ، ومن أعضائها الشيوخ الأجلاء ومنهم بعض أرباب المكانة في المجتمع المصري فلم يوفقوا في عملهم ، لما كان ينقصهم من بعد الهمة والمشاكلة في الثقافة ، والتجرد عن التعصب ما امكن في اختيار ما يطبعون ، وتألفت منذ أواخر القرن الماضي في مصر عدة جمعيات لهذا الغرض ، ومنها ما طبع بضعة كتب وانهزم من الميدان ، ومنها ما قصد طبع كتاب بعينه فلما أتمه لم يحاول طبع غيره . وقد انحلت هذه الجمعيات لأنها لم تسر على نظام ثابت يضمن لها البقاء ، ولأن القائمين بها أرادوا حلها عجزاً عن المضي فيها ، ولأن الفردية تغلب على الشرقي فلا ينجح مجتمعاً وكثيراً ما يفلح منفرداً الفلاح كله .

وأنشأ بعض النابهين من المتعلمين على الأسلوب الحديث لجنة في القاهرة في سنة ١٩١٢ سموها « لجنة التأليف والترجمة والنشر » وما زالت تزيد رقياً سنة عن اخرى ، تطبع الكتب الجديدة والقديمة ، وتعنى بألاّ تخرج مطبوعاتها قبل عرضها على جماعة من الاختصاصيين من أعضاء هذه اللجنة أو من غيرهم ، وأكثرهم معلمون وأساتذة وموظفون ، وقد طبعوا الى الآن اكثر من مائة وثلاثين كتاباً في الطبيعة والرياضة والفلسفة والتاريخ والأدب والاجتماع وغيرها ومنها ما يدخل في مجلدات ، ومنها ما هو من القطع الكامل ، ومن كتبهم ما نقلوه عن اللغات الاجنبية ومنها ما ألفه الأعضاء أو غيرهم ، فأثبتت اللجنة أن الشرقي اذا أحب العمل وأتقنه لا يقل عن الغربي .

يتنافس الناس اليوم في اقتناء المطبوعات الجيدة ، وكان المأمول أن يكتب لها الرواج اكثر مما قُدّر لكتب المجون ، ومن هذه ما يطبع عشرات الألوف كالقصص والروايات ، ومنها مالا يشبع الجمهور منه لأول نشره بأقل من عشرة آلاف نسخة ، وما يقال في الكتب يقال في المجلات — والمجلات أيضاً كتب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

دورية — فان أرقى المجلات العلمية الأدبية باللغة العربية تطبع بضعة الوف ، ومجلات العامة تطبع العشرين والثلاثين الفاً وربما اكثر من ذلك ، وما يروق الخاصة لا يروق العامة ، وخواص كل أمة اقل من عوامها . وكان لارتقاء فن الطباعة في الغرب دخل كبير في رقيّ المجلات العربية وما صارت اليه من التفنن في الطبع والتصوير . ولم يدخل على الكتب من هذا التحسين شيءٌ كثير يناسب فائدة الكتب ، وتناسى السواد الأعظم ان الكتب تخلد وتورَّث وتتناقلها الأيدي اكثر من المجلات والصحف ، وهذه ما خرجت عن كونها ابنة يومها بل ساعتها .

أصناف الكتب

تقسم الكتب في مصر الى قسمين صفراء وبيضاء ، فالكتب الصفراء هي ما طبع على ورق اصفر من الجنس الرديء ، وهذه يسمونها الكتب الأزهرية ، والبيضاء هي التي تطبع على ورق ابيض ، وهي كتب الجمهور على أنواعها وكتب المدارس النظامية ، والكتب الصفراء رديئة الطبع ، رديئة الوضع ، تشوش القارئ وتبغض اليه المطالعة ، بما تحمل من هوامش وهنات ينبو عنها النظر ، والعكس في الكتب البيضاء المشرقة فانه تستجاد لها الحروف والورق وهي خالية من الهوامش الا ما كان منها داخلاً في الموضوع ، وقد تبذل العناية بتصحيحها اكثر من الكتب الصفراء .

دب الكساد في الكتب الصفراء قليلاً ، وكتب الرواج مع الزمن للكتب البيضاء ، بقاعدة بقاء الأنسب ، وبما دخل من التحسين على أذواق الأمة ، وما برح مع هذا بعض الطابعين بمصر يجوزون لأنفسهم طبعها كما يطبعون كتب التضليل والتدجيل ، يصدرونها الى بلاد الزنوج في أواسط افريقية والى بلاد المالايو ، يطبعون منها مقادير برسم التصدير الى الخارج غالباً ، ولو كان لي من الأمر شيءٌ لجرَّمت كل من يجرؤ على طبع مثل هذه الأسفار المضرة بالعقل والدين ، ومضرتها لا تقل عن كتب المجون والسفاهة ، وكتب الالحاد والاباحة ، ذلك لأنها تباع على انها كتب دين ، والدين لا يعرفها وليست منه بسبيل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مضار الكتب الساقطة

لا جرم ان من يبيع من الجهلاء كتباً تزيدهم جهلاً وغباوة كمن يحمل المخدّرات الى السذّج ويزين لهم استعمالها ، او كساقٍ يسقي السم الزُّعاف لمن يطلب اليه ان يسقيه ماءً قراحاً ، وليست كتب الجهالات في تخريب العقول بأقل من تخريب المخدرات والمسكرات في الأجسام . الحكومات تخاف من كتب فيها ما لا ترضاه سياساتها ، ولا ترى واجباً عليها أيضاً أن تحظر على الطابعين طبع المضرّ من الكتب ، لئلا يحملوا الى القراء كتباً غير محرزة ولا معتبرة ، فان هذه بالنسبة لجمهرة الأمة لا تقل مضارها عن تلك

ربما يقول بعضهم ان هذا مما يفتح للحكومة باب التدخل في حرية النشر وسلب حق الناس في الحرية . وما كان لأمة لا تعرف مالها وما عليها ، وما يصلحها وما يفسدها ، وليس لها من نفسها مراقب ولا محاسب ان تتمتع من الحرية بالمقياس الواسع ، وخير أن يرجع في النشر الى قاعدة من ان تطغى هذه الفوضى على ما يطبع ، وترجع الأفكار الى عصور الظلمات ، وينقطع الأمل من تأليف امة منورة متجانسة حتى بعد قرون .

مظاهر الكتب وترويجها

وبعد فقد كان في الامكان الاستعاضة عن هذه التجارة المحرمة في الكتب بتجارة محللة فيها بطبع الكتب المفيدة ، فان ما يطبع في مصر من الجيد تروّجه شهرتها في الأقطار ، وتزيد الكتب رواجاً بين مختلف الطبقات بقدر ما يتقن الطابعون طبع ما يطبعون من الكتب وينتقون أسفارهم ، ويبذلون العناية بالتصحيح والتهذيب . وقد رأينا بأخَرَة بعض الطابعين تنصرف هممهم الى الخروج عن الطريق القديمة بعض الشيء كأن يقلدوا الطابعين في ديار الغرب بعنايتهم واتقانهم ، ويجعلوا فهارس للكتب ، ويتوقوا الأغلاط المطبعية في الجملة ، فزادت بذلك كتبهم حرمةً وقبولاً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

جمال الكتاب وطبعه مما يزيد الرغبة فيه ويزينه في الأعين ، وفي العادة أن كل بضاعة تبرز في قالب مقبول صنعاً ووضعاً تحتل من النفوس أحسن موقع ، فما الحال بالكتب التي هي أكثر البضائع اعتباراً وخلوداً ، ولقد بلغ حب الاتقان من أهل الغرب ، وحب الاعلان عن كل شيء ان عهدوا الى مفننين عرفوا بسلامة الذوق وسعة الحيلة ، ليصفوا بضائعهم صفاً يلفت الأنظار ، ويعلنوا عنها في الصحف وغيرها بما يبعث العزائم على اقتنائها ، وان لم ترغب في ذلك كثيراً ، فهل عندنا نحن بكتبنا وقدرنا أنها على الأقل بضاعة من البضائع تحتاج لمن يروجها ؟ ان الكتب العربية تحتاج الى ان تأخذ حظاً من الاتقان اللازم وتهيأ لها من طرق الدعاية والنشر مثل ما يهيئه الطابعون والوراقون في البلاد المتمدنة لنشر مطبوعاتهم . ولو كانت كتبنا اسفاط جواهر مخبوءة في مستودعات الطابعين ما تنبه الناس لها بدون اعلان ولا دعاية .

بعض طرق الغربيين في نشر الكتب

في يوم واحد ينشر الورّاق الإنكليزي (١) الكتاب الجديد في كل بلد تقرأ فيه اللغة الانكليزية من أصقاع الغرب والشرق ، وفي يوم واحد تكتب الصحف والمجلات نقد الكتاب وتقريظه وتلفت الأنظار اليه ، وفي يوم واحد يقرأ هذا الكتاب ابن بريطانيا العظمى وابن اليابان وابن كندا وابن استراليا وابن زيلاندة الجديدة وابن الولايات المتحدة وابن الهند ونزيل جنوبي افريقية ومصر والسودان . والوراق الانكليزي لا يضنّ لترويج كتبه بين القراء بكل مافي وسعه ، ينشرها بكل حيلة ، وكذلك سائر الوراقين من جميع الأمم المدنة ، فعلينا أن ندرس طرائقهم ، وعلى الوراقين عندنا ألا يضنوا بخمسة أو عشرة في المئة يضمونها على نفقات

(١) ان مما قرأناه في هذا الشأن كتاباً نقل الى الفرنسية من الانكليزية في حقيقة الطبع لمؤلفه ستانلي اونون واسمه Stanley Unwin : La vérité sur l'édition و « الكتاب » لالبر سيم Albert Cim: Le livre

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الطبع للاعلان عن مطبوعاتهم ، فيخدمون بذلك أنفسهم ويخدمون المؤلف ، ويخدمون المدنية والمعارف .

قصور وراقينا في النشر

وإنا لنجد الكتاب الذي يصدر في مصر لكثرة تدنيق بعض الوراقين في النفقات قد لا يصل الى البلاد العربية في أقل من سنة . يعتمد الكتبي في ترويج كتابه على الطبيعة والمصادفات اكثر من اعتماده على التذرع بذرائع النشر الكثيرة ، وربما طبع الكتاب الجيد وما عرف به من يهمهم اقتناؤه الا عرضاً وبعد سنين تمضي على نشره ، فهل يحق بعد هذا لورّاق أن يشكو من قلة الرواج ؟ والرّواج بيده ، ولو بذل القليل لربح الكثير . ولو صرفت العناية بالاعلان عن الكتب وترغيب الناس فيها وعرضها في المدن والقرى وتحبيب اقتنائها للرجال والنساء والأطفال لزاد عدد المطبوع والمبيع من كل كتاب قديم او حديث ، ولقلّ بهذا العمل عدد العاميين في البلاد العربية جمعاء ، ولا يمضي عشرون عاماً حتى تتغير تصورات الناس وأخلاقهم وآدابهم ومناهجهم في الحياة . بيد الطابع وبيد المؤلف نشر حضارة أمة فلينظر الوراقون ماذا يعملون ، ولتعمل الحكومات الواجب عليها نحو الطابعين ، ولتراقبهم لما فيه مصلحتهم ومصلحة الجماعة .

نحن في أشد الحاجة الى التجدد في مطبوعاتنا ، وان نجدد في مظاهر الطبع من حروف واشكال وصور ، وقطع ووضع وورق وتجليد ، ونجدد في المبالغة بتصحيح الكتب والتعليق القليل بما يبين غامضها ، فليس كل الناس يفهمون ما يقرؤون ، فعلينا أن نسهل عليهم فهمها ، كأن نشكل دائماً محال الإشكال من الألفاظ ولا نترك غامضاً ولا مبهماً ، ونحن إذا فعلنا هذا لا نغشّ المطالع بل نستميله الى الاكثار من المطالعة . واذا صنا كتبنا عن تلقين المبتدئين أغلاطاً تتأصل في عقولهم فتؤذيها نصون الدين والآداب والمدنية ، ولا تقل التبعة الملقاة على عواتق الطابعين عن التبعات اللاحقة بالحاكمين والمسيطرين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نقابات طبع الكتب

نحتاج الى التجديد في طرق النشر ، ولا يتم ذلك الا بانشاء نقابة او نقابات تفكر في اقرب السبل الى الاتقان والنشر والربح ، وتصدر مجلة توزعها مجاناً على دور العلم ورجاله وطلابه ، تفيض في الكلام على ما صدر ويصدر من الكتب ، وعلى مافي القديم منها من الحسنات وغيرها فتكون خير اعلان لما طبع ويطبع ، وأصدق مرشد لمن اراد ان يقتني الاطايب من الاسفار ، ولا ينفق فيها اكثر مما تمكنه حالته من انفاقه ، ويعان علَى ان يكون له منها مع الزمن خزانة خاصة يستفيد منها هو وأولاده وأحفاده .

العصر عصر الشركات ، وقد رأينا الطابعين او الوراقين الذين ضعفت رؤوس أموالهم لا يأتون شيئًا يعتدُّ به في هذه التجارة ، ورأينا المطابع الكبرى او الشركات المموّلة المنظمة في عملها تربح كثيراً وتفيد اكثر من غيرها . فاذا اجتمع الوراقون في مصر مثلاً ، وألفوا شركةً او شركات يدخل فيها فقراء الورّاقين وغيرهم تتغير أشكال الطبع وأشكال الأسفار ، وتخف شكوى المتجرين بالكتب من قلة الرواج ، وشكوى المؤلفين والمترجمين والمصححين ، وشكوى القراء من سخافة المطبوع والمنشور ، وشكوى الكتب من الكساد ، وتدخل في طور اتقان وعناية على النحو الذي نراها عليه عند أصغر أمم الحضارة لعهدنا .

سبيل رواج الكتب

يتوهم بعض الوراقين عندنا ان الاشتطاط في الربح يوصل الى الغرض من هذه التجارة ، ونسوا ان الربح القليل من شيء كثير أعود عليهم من ربح كثير من شيء قليل ، ولو ادركوا ذلك ما توقفوا عن تغيير أساليبهم في الطبع والنشر وتقدير الربح ، ولأيقنوا أن من مصلحتهم المهاودة في الأسعار والعناية بتجويد بضاعتهم . ولكتاب يطبعه طابعه ويبيعه في مدة قصيرة أنفع له من كتاب يبيعه في المدد الطويلة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ليربح منه ما يقدّره لنفسه من الأرباح ، وهذا من أيسر قواعد التجارة التي يعرفها الأطفال في الغرب فعلى الرجال أن يتعلموها عندنا .

من جملة طرق الرواج في الكتب جودة طبعها وحسن خدمتها ، ونقصد بخدمتها المبالغة بتصحيح أصولها وتجاربها ، وحلّ المشكلات من متونها وشروحها ، فقد كان الطابعون فيما مضى يتوهمون أن كل مخطوط صحيح صالح للطبع لا يحتاج الى اكثر من ان يدفع الى المنضد لتنضيد حروفه وترتيب صفحاته ، ويجعل على الآلة الطابعة تخرجه ملازم ملازم . والكتب التي تطبع لأول مرة والتي يتكرر طبعها تدفع الى رجل أزهري اذا كان على شيء من العلم فيكون من الطبقة التي تعرف الاعراب فقط ، وليس النحو والصرف كل شيء في عالم العلم .

الفرق بين الغربيين وبيننا في الطبع

رأينا كتباً طبعها أعاجم من الغربيين وهم علماء فخرجت صحيحة سالمة من الشوائب ، على ضعف ناشريها احياناً في القواعد وبعدهم عن حفظ الدساتير ، ورأينا اسفاراً طبعت في اتقن المطابع بعناية أقدر المصححين تفيض بالأغلاط ، مثال ذلك تاريخ ابن خلدون المطبوع في المطبعة الاميرية ، لو تصفحته لتعوذت بالله مما فيه من تحريف الأعلام ، وسقطاته كثيرة قد تكون كلمة او اسطراً او صفحات ، ولا تخلو صفحة منه من بضع غلطات شائنة تحرّف النص وتُحيل المعنى ، وظن مصححوه أن ما يعرفونه من قواعد الاعراب كافٍ في تصحيح مثل هذا الكتاب . وإلى اليوم نقع لأعظم المطابع خطراً اغلاط من هذا القبيل تحمرُّ لها الوجوه ، والواجب على من يعرف صنفاً من العلوم ألا يظن نفسه انه يحسن الاضطلاع بجميع الأصناف . ولعل احد الباحثين يضع لنا كتاباً فيه متاع وعبرة ، يلمُّ فيه بأغلاط المطابع ، ويدوّن لنا مايكتبه المصحّحون في اول الكتب وآخرها من مدح الطابع ومدح من طبعت في أيامه ، كأن طبع كتاب عِدلٌ لفتح قلعة او ثغر ، او اعمار بلد او قطر .

تصحيح الكتب المطبوعة مسألة المسائل في فن الكتب ، وكم من كتاب قديم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

طبع على نسخة واحدة في بلادنا وزاده جهل الطابع والمصحح أغلاطاً الى اغلاطه ، وقالوا لقارئه انت وشأنك في هذا الكتاب ، ذلك لأنه قلّ ان يُعنى أرباب المطابع باختيار مصححيهم ، يختارون اكثرهم من المرتزقة ، من الصنف الذي يصحح الملزمة ببضعة قروش ، ولو اعطى الطابع مصححاً يكون على شيء من العلم المئات لما كان مغبوناً ، ولهان على من يتناولون الكتاب ان يقتنوا ما أُتقن طبعه وعُني بتصحيحه ، وان يعطوا زيادة عشرة في المئة تضاف على قيمة الكتاب

كان تحريف جهلة الناسخين للكتب وتحريفها بصنع جهلة الطابعين مما أضاع على طلاب العلم اوقاتهم ليتوفروا على اصلاح ما كان واجباً على غيرهم أن يصححه ، ويتعبون وهم مئات ، وكان الأولى ان يتعب واحد او اثنان ولا يشغل الناس بالعبث ولا تباع منهم مجموعة اغلاط . اي كتاب لأجدادنا طبعته مطبعة من مطابعنا التي نعدها راقية قبل هذا العهد الجديد ، ولم تحص عليه الأغلاط الكثيرة حتى الأمهات من كتب الشرع واللسان ؟ وأي كتاب طبع فأنفق الطابع على تصحيحه مالاً ، وهو يعتقد ان واجبه ان يعمل هكذا بكتابه ؟ ليت كل وراق يعرف ان ما يصرفه في تقويم الكتاب لا يعدُّ مالاً ضائعاً بل لابد منه لرواج كتابه ، والامانة تتقاضاه ذلك .

عبث الطابعين الجهلة بالكتب

ان من اعظم البلاء ان تتقدم العامة فتتولى طبع الكتب ، وما كان اجدر بالخواص ان يعمدوا وحدهم لمعاناة هذه الصناعة ويرقوها بكل ما عند من سبقهم الى الحضارة بأنواع الترقي ، ويغاروا على تجديدها كما يغار المرء على حرماته ومقدساته . نعم ان بعض الوراقين اليوم في مصر هم من الأميين حقيقة لا يعرفون ما يطبعون وما يطبع لهم . وما ينتظر من أُمي ان يقوم به في باب العلم ؟ ومنهم نصف أميين وهؤلاء بلاؤهم أشد ، هم جاهلون ويدعون المعرفة . ولو كانت حكوماتنا تفكر أبداً في نهوضنا العلمي لما سمحت لرجل ان يطبع كتاباً و ينشره الا اذا كان حاملاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شهادة من المدارس الوسطى على الأقل ، فضرر الكتبي الجاهل لا يقل عن الضرر الذي يأتي على يد الصيدلي الجاهل .

ومما تألم له النفس ألا يكون عمال المطابع على شيء من المعرفة وألا يتخيروا من الشباب الدارسين . وقد شهدت اعظم المطابع الراقية في هذا الشرق القريب تختار صبياناً نصف أميين لتنضيد الحروف وعمل سائر ما يتعلق بالطبع ، ارادة الاقتصاد من أجورهم ، فيتعب بذلك المصحح كثيراً بتقويم التجارب ، ولا يخلو المطبوع مهما صحح من غلطات تبقى بعد معاودة الاصلاح مرات ؛ ولو كان المنضدون يحسنون فهم الكلام لاكتفى الطابع بتجربة واحدة .

واشهد أني أفضل ان ابتاع كتاباً عربياً طبع في الغرب من كتبنا القديمة بعشرين أو بثلاثين ضعفاً عما يباع به مثله من الكتب المطبوعة في الشرق ؛ لأني اجد في ذاك من المحسنات وكل ضروب الاستفادة والتيسير ما لا اجده في طبعاتنا ، ولا أجد في الكتاب المطبوع في ربوعنا على الأكثر الا بشاعة وركاكة ، وأغلاطاً لا تجد لها اولاً ولا آخراً . وقد اقدم بعض طابعي الكتب الصفراء في العهد الأخير على تحسين نوع الورق والحروف وجادوا بعض الشيء على المصححين فنشروا كتباً خرجوا بها بعض الشيء عن مألوف ما كانوا طبعوه وطبعه آباؤهم ، وأهم ماعملوا أنهم وسدوا النظر في الكتاب الى عالم فخرجت كتبهم عن أسلوب الكتب التجارية ، وصارت تعد في كتب العلم ، واظنهم ما خسروا بما عملوا بل نفعوا وانتفعوا ، فاذا خطوا خطوة أخرى الى الأمام وعدلوا عن صيغهم القديمة في الطبع سيحمدون ولا شك غبّ عنايتهم ، يبدؤون في الطباعة عهداً جديداً فيه الخير لهم وكل الخير للمدرسين والدارسين .

لجان علماء للنظر في الكتب

حبذا يوم نرى فيه كل مطبعة كبيرة تعهد الى لجنة من الخبراء والعلماء النظر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في كل ما تطبع ، وتراقب الكتاب من وضعه وتأليفه الى صفّ حروفه الى وضع صفحاته الى تصحيح ملازمه الى طبعها الى طيها الى جمعها وضمها كتاباً برأسه . هذا اليوم الذي تقضي به هذه اللجنة على صاحب المطبعة ان يعمل بقرارها لرواج مطبوعاته ، واختيار ما يعم الناس نفعه ، هو اليوم الذي يكون في تاريخ الطباعة بدء عهد جديد ، بل عهد حضارة ما سبق لنا نظيره منذ أخذنا نطبع الكتب ونقلد الغرب .

نعم ان طبع الكتب يحتاج الى مراقبة شديدة أهونها ألا يطبع شيء قبل أن تنظر فيه لجنة تقر نفعه ، فان المكررات من الكتب التي لدينا من نوعها الأمهات المعتبرة ، وكتب التخريف والتافهات ، وكتب المجون والغراميات وغير ذلك لا ينجينا من آفاتها الا سلطان المراقبة الشديدة في كل كتاب للقدماء والمحدثين فلا يطبع برأي طابع لا رأي له الا النفع المتوخى من الكتاب ، وغايته الوحيدة الاكتساب المرجى منه ، ولو بالقضاء على العلوم والآداب ، والاتيان على الفضائل واحياء الرذائل ، وشغل الناس بالسخف والهراء ، وما كنت أوثر التوسع في هذا الموضوع لولا أن ايراد الأمثلة ضربة لازب لتجلية المراد .

مثال من سخف الكتب المطبوعة

لو عرض طابعا كتاب « حلية الأولياء » للحافظ ابي نعيم الأصفهاني المتوفى سنة ٤٣٠ على عالم بالكتب والمؤلفين قبل ان يتكلفا طبع كتاب عظيم مثل هذا يقع في عشرة مجلدات وتبلغ صفحاته اربعة آلاف صفحة — لقال لهما ان هذا الأصل الذي طبعتما عنه وقع في الغالب الى يد أحد الجهلة فأضاف الى كل ترجمة من عنده سخافات ما انزل الله بها من سلطان ، وما كانت من كلام المؤلف ، وكتابه قد شهد له الثقات بالجودة ، وهذه الاضافات تقدح في جودته لو كانت من المؤلف ، وقرأها من شهد للكتاب بالاجادة . وهاكم مثالاً من مئات الأمثلة من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذه الزيادات التي شوهت الأصل ، وجعلت الكتاب على ما فيه من الفوائد جعبة ترهات ورقاعات .

من ذلك (ص ١٠ ج ١) وهم (اي المتصوفة) المصونون عن مرامقة حقارة الدنيا بعين الاغترار ، المبصرون صنع محبوبهم بالفكر والاعتبار (٢٨ — ١) بدأنا بذكر من اشتهر من الصحابة بحال من الأحوال ، وحفظ عنه حميد الأفعال ، وعصم من الفتور والاكسال ، وفضل الله له العهود والحبال ، ولم يقطعه سآمة ولا ملال . ونحن نقول : ان هذه العبارات المفككة المرتبكة تنادي بلسان الحال والمقال ، انها من اسخف ما دونته الأجيال ، في تراجم الرجال ، وانها املاء دجال لا يخاف الله بحال .

(٣١ — ١) وقد قيل ان التصوف السكون الى اللهيب في الحنين الى الحبيب (كذا) (٣٣ — ١) ان التصوف استنفاذ الطوق ، في معاناة الشوق ، وتزجية الأمور ، على تصفية الصدور (٣٩ — ١) وما عهد منه (سيدنا عمر) في ملازمته للتفريد ، ومحاماته على معارضة التوحيد ، وان لا ينهنهه عن مصاولتهم العدة والعديد . (٤٨ — ١) وكان (عمر) عن فناء الملاذ منتهياً ، ولباقي المعاد منتفياً ، يلازم المشقات ويفارق الشهوات وقد قيل ان التصوف حمل النفس على الشدائد الذي هو اشرف الموارد (٦٢ — ١) التصوف مرامقة المودود ومصارمة المحدود (٦٨ — ١) التصوف اسلام الغيوب الى مقلب القلوب (٧٠ —)التصوف الارتقاء في الأسباب الى المقدرات من الابواب (٧٢ — ١) التصوف البروز من الحجاب الى رفع الحجاب (٨٧ — ١) التصوف النزوح بالأحوال والتخفف من الاثقال (٨٩ -) التصوف الوفاء والثبات والتسامح بالمال والجدات . في ترجمة مصعب بن عمير الداري (١٠٦) ورغب عن التعريف والتسويف ، وغلب عليه الحنين والتخويف وقد قيل ان التصوف طلب التأنيس في رياض التقديس (كلام لا معنى له) وأيضاً (ص ١١٠ — ١) التصوف المفرق البينونة الى مقر الكينونة ! (١١٢ — ١) التصوف اقامة الدنف المعذب على حفاظ الكلف المهذب ! (١١٨ — ١) التصوف الوطئ على جمر الغضا الى منازل الأنس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والرضا (١٢١—١) التصوف استنشاق النسيم والاشتياق الى التسنيم ! (١٢٤—١) التصوف مشاهدة المشهود ومراعاة العهود ومحاماة الصدود ! (١٢٩) تصحيح المعاملة لتصحيح المنازلة ! (١٣٩—١) التصوف تسور السور الى التحلل بالحور ! (١٤٧) التصوف قطع العلائق ، والأخذ بالوثائق (١٥٧) التصوف التأله والتدله من غلبات التوله .

يا سيدي القارئ الكريم بربك اعذرني على نقل هذا الهراء ، ولو أردت لنقلت من هذه السخافات المضحكة المبكية مئات ، دسها الداسون في كتاب حاول مؤلفه أن يترجم لنساك الأمة فاختلط سمينه بغث ذاك العابث . وربما تساءل القارئ وكيف لم يهتد الطابعان الى ما شان الكتاب ؟ فالجواب هذا من عمل العلماء لا من عمل الطابعين ، ولو وقع الأصل لعارف ما تلكأ لحظة عن القول بما قلناه في هذه النقول ، وانت لو فتحت أي ترجمة لما رأيتها على الأغلب تخلو في مقدمتها من مثل هذا الهذيان . وبالله بعد ان عرفت درجة الحافظ ابي نعيم في العلم هل تجوّز عليه أن يقول : ومنهم الذاكر الفكري ، خليد بن عبد الله العصري ، كان لمحبوبه ذاكراً ، والى مشاهدته ساهراً ، وان تقول ان هذا تصوف . ووالله لا يقول هذا الا من اختل ذهنه باجماع اطباء الامراض العقلية . الا يستحق ان يأوي الى مستشفى المجاذيب من يقول (ص ٢٥٨ ج ٢) التصوف عويل حتى الرحيل وحويل الى المقيل (٢٩٠ ج ٢) التصوف التمتع بالحضور والتبتع للخطور (١٨٣— ج ٢) التصوف الصفو للزيق والرقو للفيق !

واي هذيان اعظم من هذا الهذيان ينشر في هذا الزمان منسوباً الى رجل من رجال الحديث المشهورين . ألا يوافق العقلاء بعد ذلك على تأليف لجان علمية تنظر فيما يطبع قبل أن يضيعوا وقت الناس ويؤذوا عقول ناشئتهم واذهان القراء

ولا أحب أن اختم هذه العجالة قبل ان أشير الى كتاب آخر ارتكبت في طبعه فقط مثل هذه السخافات ، عنيت به « البداية والنهاية » لابن كثير . فقد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

طبع منه حتى الآن اثنا عشر مجلداً بالقطع الكبير لا تقل عن ثلاثة آلاف صفحة وبقي منه أربع مجلدات ووقع على ما يظهر في أيدي مصحح لا يعرف التاريخ ولا يعرف الأدب ، حتى ليخيل الينا ان مصححه منضد حروف او فراش في المطبعة يرزق كل يوم خمسة قروش . هناك أسماء الأعلام محرفة تحريفاً مخجلاً حتى أنك تقرأ العَلَم على صورة في صفحة من الصفحات فاذا قطعت صفحتين أوثلاثاً تقرؤه على شكل آخر وهو هو ، وكذلك الأبيات الشعرية ، اجارك الله من تحريفها فانك اذا تلوتها تعاف الشعر وتنكر الأدب ، فان كثيراً منها لا يفهم ، وبعضها لا وزن له مطلقاً ، كأن الناظر فيه من طبقة العوام لا يحسن الوزن ولا يعرف المعنى . الا يجدر بمثل هذا الكتاب الذى يكلف طبعه المئات من الجنيهات أن يصرف على تصحيحه عشرات من الدنانير ويعهد بتصحيحه الى أناس يحسنون فن الأدب وفن التاريخ ، ولا يكتفى منهم ان يعربوا جملة صحيحة ، ويقرؤوا عدة مقاطع بلا غلط ؟ ان طبع هذا الكتاب على هذا النحو يعدُّ جناية على الأدب وتجنياً على العلم والمعارف ، وبه ثبت ان كل شيءٍ يتبدل في العالم الا عقول اكثر الطابعين في مصر فانها جامدة لا تتحرك ولا تحاول ان تتحرك .

الأمثلة كثيرة في هذا الباب وقد مثلنا لذلك بما حضرنا من امثلة ، ويرى القارئ النقاد ان هذا الموضوع جليل في ذاته يجب أن يعانيه الدارسون والمدرسون والعالمون والمتعلمون وكل من يهتمون للحياة العلمية في الأمة العربية ، ونحن الآن اذا قصدنا الطابعين فقد نقدنا من قبلُ المؤلفين ، وكل ذلك بسائق الغيرة على اوضاعنا وحضارتنا وحباً بالتجدد وبعداً عن الجمود .

هذا وقد رأينا بعض النفوس تزهد في الكتب بعض الزهد وتستغني بعض الاستغناء عن القراءة ، ومن ارتقى عقله يستحيل عليك ان تضطره الى قراءة مثل حلية الأولياء بهذه الزيادات عليه . الناس مأخوذون بما هم محكومون له من التفنن في طرق النشر الحديثة من صحف ومجلات ومذياع ، وهذا ما يدعو الى التفكير

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كثيراً في مصير الكتاب والعقبات التي ستقوم في مستقبل الأيام أمامه من أجل رواجه ، وانا ليؤسفنا ان نرى الكتب وما يطبع منها لا يزيد مقدار المطبوع منه كثيراً بالقياس الى ما وصلنا اليه من الحضارة ، فالكتب لم تَرُج الرواج المطلوب بل وقفت عند حد لم تتقدم فيه الى الأمام كثيراً ، ذلك لأن ما كان يرجى أن يزيد عدد المطبوع منها بكثرة قارئيها قد اخذته الجرائد والمجلات ولا سيما المجلات التي لا تعني كثيراً بمسائل الجد ، فكان من ذلك ان شغل جمهور كبير من محبي المطالعة بالتافهات والهزليات ، وكان آباؤهم بالأمس يصرفون كل وكدهم في اقتناء كتب الجد المخطوطة ، ويفاخر حتى العوام بما اقتنوا أو ورثوا من كتب يحتفظون بها كما يحتفظ غواة العاديات اليوم بعادياتهم ولا ينزلون عنها لغيرهم ولو افتقروا .

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net